أيلول من المدن البعيدة

الجميع اليوم محمومون للقتال . (والمملكه الاطوليه) بدا جيشها يزحف باتجاه المدينة ، كان الجميع ، ملبسّما ومدائين ، كعنقود العنب يتدلى منهم القنابل ، بانتظار الصحوه الكبرد .

لم ننم ليلة الاضراب المعلن ، وبانتظار الغد قالوا لنا بوجهها الجيش سيتحرك باتجاه المخيم ، وسيقوم بقصف مدفعي وعلى الجميع أن يبقوا في أماكنهم . المزمنا ،ذلك ، كنا نريد القتال من أجل أن نتحرر من هذا النظام . لقد كنا نعرف جميعا ان عمان ستكون هانوي ، اذا الموت مهما تكاثر فهي النهاية سيعيش الباقي في هـانوي عمان ومع أول قذيفة أطلقت على المخيم ، انشرنا في السهل المقابل بانتظار اي تحرك قادم من جهة الاذاعة ، ومع الدفعة الاولى لخيوط الشمس الصباحية الصفراء ، رأينا انتشار الدبابات بكثافة . (أحببت الشمس) شعرت بانها تقابل لتصبح عمان هانوي . حملنا قنابلنا في أفواهنا وبدأنا نزحف باتجاه الدبابات ، وبدأ الرفاق عملية القصف لحمايتنا وبدأت الدبابات عملية قصف كثيفة على المخيم ، ومعها مدافع بعيدة المدى ، تقدمنا ، وهم يتقدمون ، والنحمنا ، بعد أقل من ٢٠ دقيقة أجساد بشرية صغيرة ، تقفز على هذا الجسم الحديدي ، تحرقه وتحترق هي بدورها . كل شـيء بدا يذوب وتشتعل وينفجر بأسرع مما كنت أتصور ، صراخ الفرح المزوج بالانتصار ، كل شيء تحول الى حريق باقل من نصف ساعة ، عدنا الى مواقعنا ، وعند وصولنا الى أطراف المخيم ، بدأت صبايا المخيم تعطينا الماء ، والعجائز تطلق زغاريد وتقبلنا .

ولاول مرة شعرت بمعنى الانتصار وروعته كان يوما رائعا وطويلا رأيت الوجوه متشابهة وابتسامة الانتصار تملأ المخيم .

ولاول مرة غابت الشمس ولكن لمتأتي أكثر اشراقا .

★ ★ ★

المسافة تطول لاول مرة بين الصباح والمساء كل دقيقة كانت بدقائهـا الصغيرة تدور لاول مرة دون مواعيد ، فكانت بطيئة ومارغة .

من الصباح والقصف لم يتوقف واذا توقف يعود من جديد ونحن مشدودون الى الارض كمن يوشك أن يغور في بطنها .

مبان كثيرة انهارت على ساكنيها . وجبال عمان السبعة اقتربت ولم يعد بينهـا أية مسافة ... القذائف من الفلعه الى الاشرفيـة الى الحسين الى جبـل التاج هكذا سريعة ومتلاحقة ، وعادت الجبال البعيدة قريبة كقرب وجه رفيقي الذي بجانبي (أتساءل كيف تضيع هذه المسافة وبهذه السرعة) .

هدأ كل شيء الان ، تحركت أنا ورفيقي باتجاه احد المباني القريبة والمنهارة بفعل القذائف نعثرنا في الطريق بكل شيء بالحجارة بادوات المطبخ ، بالكراسي الصغيرة والكبيرة ، كانت أعيننا تبحث عن شكل انساني بين كل هذا الحطام ، لم نجد أحدا ، التفتنا نحو الطابق الارضي ودخلنـا ، كانت رائحة النفس البشري عابقـة بالمكان والوجوه متلاصقة ، أجساد ثقيلة على الارض ذات وجوه متسائلة حتى الاطفال النيام كانوا هادئين على غير عادتهم ، رغم بعدهم عن مكان لعبهم الحقيقي ولكن عيونهم فيها خوف ممزوج بالغرابة .

هو مطبخ أرضي للمبنى ولكن أصبح الان ملجأ ، والجميع مطمئنون لهذا المطبخ الملجأ ، أسئلة كثيرة وجهت الينا ، أجبنا على بعضها بمزيد من التفاؤل وخرجنا ، لم نسر بعد عدة خطوات عن المبنى حتى عاد القصف شديدا كما كان ارتمينا أرضا ولمدة عشر دقائق ، سمعنا صراخا اتجهنا برؤوسنا كان سكان المطبخ الملجأ ، يخرجـون مذعورين وهم محترقون ومتساقطون دون حراك ، أنين وصراخ أطفال ونساء وشهيق والموت يحوم حولهم بعد أن احترقوا كل شيء احترق الان حتى الحجارة والكراسي ، انه النابالم قال أحدهم وهو يئن ذاهبا للموت .

لم يبق حما سوى صبية احترقت يدها ، ونصف شعرها ، وطفلة كانت بين يديها رضيعا معا للموم الثالث .

★ ★ ★

كل شيء تبدد في مكانه هذه الدلدلة ، لا صوت هناك وعمان نائمة ، قبل ساكنيها يراهم خلف النوافذ ومجاداه الابواب ، لا يتحدثون ، ولكن لا أصوات هناك ، اسهى القصف السديد المستمر ، والليل ساتر ولكنه محمل بالمفاجـآت ، امرأه تتقدم من الكمين ، أنت لنا بالخبز والشاي ، عرفناها لقد أتت بالأمس أيضا أنت حاملة نفس الاشياء ، الخبز تحول الى كعك انه منذ ٤ أيام ولكنها قالت مع الشاي يصبح لذيذا ، جلسنا أخذنا نرتشف الشاي وهي بجانبنا ، تجلس بيننا قالت لا أستطيع العوده الى البيت ، قلنا لها بعض الرفاق يوصلونك رفضت وقالت أريد أن أبقى معكم ، « ماذا تفعلين » لم تجب ولكن رفضت باصرار امرأه خائفة أن تذهب ، التفتنا الى بعضنا ، كلنا رجال ، وأم خليل امرأة عجوز ووحيـدة ، أشار الينا آمر المجموعـة بالقبول والصمت ، وبدأ الليل يمضي ، نيام ولا نيام نصحو ولا ندري كيف نمنـا ، وقبل الفجر ، جاء القصف عنيفا ، وبدأ يظهر ربل الدبابات ، لا شيء سوى المباني خلفنا ، كانت كالقرى المهجورة مهدمة ولا أحد هناك ، وأم خليـل بقيت معنـا كانت حائره لا تدري ماذا تفعل ، كلنا في حالة استعداد ، لا أحاد تلفت للاخر ، الجميع يراقب ماذا سيحدث بعد قليل .

آمر المجموعة يعطي أمره وبيدأ القصف باتجاه الدبابات التـي بدت قريبة ، وبدأت الدوشكة ومدفع الهاون الوحيد بالقصف ، باقي المجموعة منتشرة ومحافظه على الصمت والمترقب .

صوت الدوشكة يعمل ، ما زلنا بخير ، الدبابات بدأت تلتف عـلى بعضهـا ، والمشاة يذهبون الى الشمال والجنوب وعلى الارض يسقطون دون حراك ، الدبابات احترق بعضها ، وهرب بعضها ، وأم خليل لم تدر ماذا تفعل بدأت تزغرد ، طلب منا أن نبقى ساكنين ، مجموعة أخرى من الدبابات تتقدم وما زالت الدوشكة تعمل ، نحن بخير ومجاة بدأ باتي باتجاهنا قصف شديد ، استمر كثيرا أكثر من المعتاد ، اختلطت الاصوات ، صوت الدوشكة بالقصف الصاروخي ، بكل ما يجري ، انتهى القصف وبدأنا نزحف باتجاه مواقعنا ، وصلنا ، الجميـع بخير ، رامي الدوشكـة ورفاق الهاونات . والهجوم فشل في تقدمه ، التقت عيوننا ، فرحة لم تكد تلقى التحية لتبدأ توزيع المهام من جديد ، عاد القصف مجددا ، توزعنا بسرعة ، وأم خليـل بقيت في مكانها دون حراك ، لم ندر ماذا نفعل ، تفتح ذراعيها فجاة ، ... تحتضن القذيفـه ... وتذهب أشلاءا متناثرة .

★ ★ ★

غادرت الشمس المدينة ، وغادرت عمان الى الليل ــ والليل لحظـة يخـرج الناس فيها على أبواب المنازل ، بعد أن يهدأ قصف النهار المواصل ، وبدأ الهمس ، كل واحد يطمئن علـى وجود الآخر ، جيرانه وأحبائه وبدأ الناس يتجمعون بشكل دائري أمام المنازل ، وهجاة عاد القصف عنيفا في كل الاتجاهات وصراخ وعويل نساء، أطفال ، الجميع يصرخون ، والقصف مستمر ، مجموعات كثيرة تناثرت بفعل القذائف ومجموعات بقيت في أماكنها دون حراك ، ملطخة بالدم ، وجاء صوت من بعيد يزحف خارجا من كل الحناجر ، ومن كل البيوت يذكر بالمذبحة ، واقتراب النهاية ، الجميع بدأ يصرخ أو يغني قائلا الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، وبدأت عمان كلها تغني والقصف مستمر ، بدأ الصوت يعلو ، على صوت القذائف : لم يعد يسمع سواها ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، غطى الليل المدينـة ، وسكتت المدافع وبدأت المجموعات تتحرك تنتظر يوما آخر من أيلول .

★ ★ ★

اليوم شهدنا ذهاب الرفيق كاتب هذه اليوميات الى مكان لم يشهد عليه أحد ، حملنا جثته ... وعدنا بدونه ، كانت أوراقه وأشياؤه بين أكياس الرمل في الكمين .

واليوم الذكرى التاسعة ، كبرنا ــ ورأيته ما زال يكتب عن أيلول ... وباقي الحكاية أكملها رفيق آخر في موقع آخر ...

جلال

انطباعات حول "كتاب التساؤلات"

للشاعر التشيلي بابلو نيرودا

« أريد أن أخرج من شعري
أنا الميت ، ولم لا ؟!
.....
.....
ينبغي مراعاة المراسيم وتقديم لا الحياء فقط
بل الازهار اليابسة ، والنيحان العفنة
والصمت
فللصمت الحق في الجمال
ونحن نواب الموت
نريد أن نعيش لحظة واحدة مزهرة
عندما تنفتح أبواب الشرف الاني » ص٦٤

ان شعر نيرودا يقتلعنا من ذواتنا ثم يعيدنا لا الى الامام ، لا الى الوراء . يعيدنا الى ذواتنا نفسهـا حيث كنا قد نسيناها في ضجيج أو رتابة الحياة اليومية بعد أن تبدلت وأصبحت غريبة علينا ونحن غرباء عليها بسبب ملابسات الواقع السلبـي المنعكس عليهـا ــ ذواتنا ــ وبالتالي الاستلاب أو الاستلابات المتكررة يوميا .

« ألا تشعر بالخطر في قهقهة البحر أيضا ؟!
ألا ترى تهديدا
في حرير شقيقه النعمان الدامية ؟ !
ألا ترى أن شجرة التفاح تزهر
كي تموت في التفاحة ؟!
ألا تبكي بينما يحيط بك الضحك
ورجاجات النسيان ؟! ص٣٢

أن نيرودا لا يتحدث مع أصابعه وهو غائب داخـل نفسه ، كما وانه لم يذهب خارج العالم ليعقد حلفـا مع غبار الاكوان البعيدة كما يفعل بعض الشـعراء المصابين بالعجز ، ان نيرودا يعيش بيننا في خضم عالمنا المتداخل ، يرى ويحس ويسمع ويفكر ، بالاسود والابيض بالشهد وبالجلاد بالوردة والقبر بالقـادم والذاهب يهتم وبالقراشات وهو بالتالي يحـاول ان يكشف لنا عن كل هذا اللا تناسـق الـذي يدور بنا ويمركنا بين نارين : ــ

« اذا عثرنا أخيرا على جهاز المستقبل
القريب تحت العار
لنتعرف فقط على الرعب
تماما كما يمثل ! مثل مسئلة أخرى
على أن يساهم النسيان
في الوضوح الحقيقي ، الذي ، ـلا ريب ، غير موجود !! » ص٥٩

لماذا يحلق ببالي الحائلة اللون
مثل رابة ؟!
هل انا شرير جرد
ام أني طيب في كل المراب ؟!
ما يتعلم . هل هو الطبيعة
ام قناع الطبيعة ؟!
البسك ورده الشر بيضاء
وسوداء ازاهير الخير ؟!
من يمسح الاسماء والارقام
للسادح اللا محدود ؟!

بالاسئلة يتدفق الشعر كما تتدفق الانهار غاسلـة جذور الاشجار وشائبات الاعشاب ، مكتسحة المتهمة والرطبات ، هكذا نشعر كلما اغتسلنا في شـلالات الشعر الاصيل حيث يتبقى الشـاعر ويمتد لحظة امساكه بصخرة الموت ورفعها عن ينابيع التصـيدد وهكذا نقف مهتمين للرقص أو للمذبحة باتجاه الافـق عندما ندخل خيمة نيرودا حيث ينكفيء العالم بفضلات الطعام والمؤامرات وتثرثر الاقزام المتطاولين في زاوية وباقي الخيمة لنا ، هذا يحـدث حتـى في اتعس الاحتمالات ، حتى في الصمت :

« انا نصل الى الصمت من شـوارع مختلفة ومن لغات متعاونة » .

وفي خضم المفارقات المتداخلة ، في روح الشاعـر وحب نخلط ظواهر الواقع والتي تبـدو في احيـان كثيرة أغرب من الخرافات ، وعن ما تنفتح عوالـم الخيال « محاولة جعل الحلم واقعا ممكن المحدوث » ينعدم الشعر بالاسئلة : ــ

« لماذا لا تسرد الطائرات الهائلة
مع أولادها ؟!
مع العصفور الاصغر
الذي يملأ مالبيون العش ؟!
لماذا لا يدربون الطائرات العمودية
على استخراج العسل من الشمس ؟! » ص٩

وسؤال اخر ولكن بالم قاتل وهدوء غريب :

« اذا مت ولم اسمه
فمن أسأل عن الساعة ؟ » ص٩

الا يبدو هذا السؤال ينقلب على لسان رفيق مقاتل وهو محاصر بزمن من الرعب والنعب والدم ؟! الا يحق لانسان أن يسأل مثل هذا السؤال وفي لحظة كهذه؟! ربما ، ولكن :

« أين يمكن لاعمى
بلاحقه النحل أن يعيش ؟! ص١٠

وهنا يبدو نيرودا صنجرا من هذا العالم الذي يتحكم به القتلة ومدبرو الانقلابات والمجـازر الجماعية ، يصنجره هذا يطهر نيرودا بالشعر من طراوة الغنـاء الى توتر الاسئلة .

هكذا يصحو نيرودا في رؤوسنا ناهضا غبار وتراكمات الدمع والملاحقة والقتل والتشريد التـي من كثرة مـا نعاني منها وتوارثها جيلا بعد جيل ، تلبسنا راعتدنا عليها بشكل أو بآخر ، ولكن وبحدة يتنفض الشـعر ضد العادة والركود منحازا لحركة الانسان ومحفزا لها ، هكذا وبحالة شبه الجنون تستثير القصيدة مدافعة بالاسئلة واللعنات ورافضة كل ما يحـاول احباطها واحباط الانسان الذي تدافع عنه وتدافع من أجلـه : ــ

على أن الشاعر وازاء هذه الكارثة لا يتراجع بنـا الى الوراء لكنه وليس بدافع التخدير أو المراساة بل بدافع الثقة بالنفس وبالحياة وبدافع التغيير أيضا .

« ابني أمنحكم درعا كي تعبروا العالم »

فنيرودا الذي يلمس الخراب بيديه وقلبه لا يبـدو يائسا رغم الخراب وليس معنى هذا انه يتصالح مـع الخراب ، ولكن بدافع كشف ومواجهة المأساة والمهزلة بنفس الوقت !

« الرحمة لهذه القرون وللناجين من أحيائها
سعداء كانوا أم تعساء » ص ٥٧
« ماتت الحقيقة وتعفنت في حفر كثيرة
من الافضل تذكر ما سيحدث
في هذا العالم الزمني لا يوجد مهزومون
ليصنع كل منا أقنعة النصر » ص٥٧

ونيرودا الذي يبدو أحيانا كمن ورط نفسه في دخول غابة ثم لم يستطع أن يخرج منها الا بعد أن تقاسمت ثيابه وسنين عمره ثم فجاة يجد نفسه خارجها وليـس في يديه سوى عشب يابس ثم ، ثم ماذا ؟! ربما يضع يديه على رأسه ويمضي ولكن الى أين ؟!

« ان كنت انتسب الى القطعان
الى الذين يدخلون ويخرجون أفواجا
الى السياحة العادلة . الى السلالة
فانني أعترف بالتساقي العنيد بالارض
التي يرادفها فجر المحيط » ص٩٩

هذا هو الانسان ومن هنا تبدأ الاسئلة ، أن الاسئلة التي يطرحها نيرودا كثيرة ومتنوعة ، فبعضها سريع أسرع من أن تمسك به كما في قصيدة رقم « ٤٣ » من المجموعة الاولى . وأسئلة أخرى ثقيلة أثقل من العتمة والحصار كما في القصائد « ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ » من المجموعة الاولى أيضا وهناك أسئلة تثير أسئلـة أخرى ولا جواب لها لا بل أن الجواب يفسدها ، حيث يبقى مشرقة ضمن أفقها كأسئلة كما في قصيدة رقـم « ٤٦ ، ٤٩ » واسئلة أخرى تجعل العالم أضيق من ثقب الابرة وتحاصر الانسان حد الجزع فاما الخـواء والتهالك وأما الانتفاض :

« ما أهميتي في محكمة النسيان
وما هو نمطيّ النتيجة القادمة ؟! » ص ٤٤

وثمة أسئلة مريحة ذات منحى طبقي واضح كمـا في القصيدتين « ١٨ ، ٧٠ » وهناك أسئلـة تتسع بالانسان حتى يكاد يستوعب العالم ، وتلك هي جميع هذه الاسئلة أو بالاحرى القصائد وفي هذه القصائـد حيث يتحول الشعر الى نهر من العاطفة يسبح فيـه الانسان والطيور والاعشاب ويكـون العالم طافيا رمتجذرا في ذات الوقت ويكون بابلو نيرودا هذا الشاعر الذي قد منحنا كل ما يملك دون مقابل .

ويبقى أن نذكر بأن « كتاب التساؤلات » هـذا والصادر عن وزارة الثقافة والارشاد السورية والـذي نقله عن الاسبانية الاسـتاذ « رمـعت عطفه » هو عباره عن ثلاثة دواوين من بين ثمانية استطاعـت زوجة الشاعر تهريبها من الطغـاة الذين اغتالـوا الديمقراطية والشاعر ودمروا الشعب وشردوه فـي أيلول تشيلي الاسود .

كريم دحام